د. شفيـــــــق بوطرفة
التخصص: أدب عربي وأجنبي
القسم: اللغة العربية وآدابها
الكلية: الآداب واللغات
الجامعة: عباس لغرور - خنشـــــــــــــــــلة
البريد الإلكتروني: chafik.boutarfa@univ-khenchela.dz

محور المشاركة: المحور الثالث: صورة الشرق في ظل الهيمنة الاستعمارية.
عنوان المداخلة: صورة مصر في كتابات المستشرق الإنجليزي "إدوارد وليم لاين"–قراءة في كتابه "عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم".

الملخص:

يُعد الاستشراق أحد أهم الظواهر الثقافية والمعرفية الرامية إلى اكتشاف الآخر المجهول المتمثل عادةً في الشرق، حيث يتفق أغلب الدارسين بوصف الاستشراق بـــ: **"علم الشرق".** فقد اهتم الأوروبيون منذ آلاف السنين بالعالم الإسلامي بحثا عن أسباب نهضة المسلمين، وبلوغهم مجدا عظيما، حيث سعى المستشرقون إلى اكتشاف العالم العربي والإسلامي بكل ما يحويه من ثقافات ومعارف، وعادات وتقاليد، وما تعلق به من سمات ثقافية أو حضارية أسست لوجوده في هذا العالم، وأبانت تفوق الحضارة الإسلامية على نظيرتها الأوروبية، فالشرق في عيون الغرب له دلالاته وإيحاءاته التي تميزه عن الغرب. وتأسيسا على ما سبق تسعى هذه الدراسة إلى بيان دور الكتابات الاستشراقية الإنجليزية في تمثيل صورة الشرق؛ في محاولة للوقوف عند تمظهرات مصر في كتاب "إدوارد وليم لاين" الموسوم ب: "عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم". وبالتالي بيان أهم المرجعيات التي تبناها المستشرق الإنجليزي نموذج الدراسة في تشكيل صورة الآخر المصري.
الكلمات المفتاحية: صورة مصر، المستشرق الإنجليزي إدوارد وليم لاين.

مقدمة:

أثار الشرق فضول الكثير من الأوروبيين المولعين بحب استكشاف الآخر، والتعرف على ماهيته، ومن هنا بدأت قوافل الرحالة والمستشرقين في التوجه نحو العالم العربي الذي بدا لهم عالما ساحرا يختلف كثيرا عن العوالم الأوروبية الأرستقراطية، فقد أثار الشرق المكتنف بالغموض، والمحاط بجمال الصحراء، والطبيعة الفاتنة الدهشة في نفوس الرحالة الأوروبيين لما يتميز به من فرادة تخصب الخيال، وتثير الدهشة بتنوعه الذي استقطب الكثير من الرحالة، وخصوصا رواد الرومانسية الذين كانوا يرون في الشرق ملجأ يريحهم من عناء الحروب التي شهدتها أوروبا آنذاك خصوصا الحرب العالمية الأولى والثانية، « ليشكل الشرق وسيلة للهروب من المجتمع الغربي الذي لم يجلب للإنسان سوى الدمار» (حمود، 2003، صفحة 74) وينبغي الإشارة إلى أنّ دوافع هذه الرحلات لا تقتصر على الهروب من الواقع القاسي الذي كانت تعيشه أوروبا فقط، فالمتمعّن في هذه الرحلات سيدرك حتما أن ثمة أسبابا عدة وراء تواجد الأ وروبيين بالبلدان العربية، حيث نجد من بينهم المستشرقين والعلماء ورجال الدين دون أن ننسى هواة السفر،

والترحال الذين شغلهم مصطلح الشرق كثيرا لما رأوا فيه من اختلاف وخصوصية سوسيوثقافية تدعو إلى كشف النقاب عن هذه العوالم التي كثيرا ما وصفوها بالعجائبية، فقد أضحى كل ما يتعلق بالشرق بالنسبة لهؤلاء أمرا عجيبا وغريبا في كثير من الأحيان، فليالي الصحراء تختلف كثيرا عن أجواء أوروبا الباردة وكذلك العادات والتقاليد التي تميز المنطقة « في الواقع أن ما كان يبحث عنه الرحالة منذ القرن السابع عشر في البلاد البعيدة هو: صورة الإنسان الأبدي، وجذوره وصراعاته والنتائج التي اكتسبها، والإمكانية التي كانت بحوزته والتي تسمح له ببلوغ حياة أجمل وأفضل» (عبد الكريم محمود، 2003، صفحة 07) إن الرحالة -على اختلاف تخصصاتهم وتوجهاتهم الأيديولوجية- الذين قرروا زيارة الشرق لم يأتوا صدفة أو هروبا من الرتابة التي كانت مفروضة في المجتمعات الأوروبية فحسب وإنما كانوا يطوفون لغرض معرفة الآخر عن قرب بكل تفاصيله قصد الاقتراب أكثر من المجاهل الشرقية وإدراك جزئياتها الإثنوغرافية، والدينية والاجتماعية والسياسية، وغيرها.

وقد شكلت مصر قبلة للكثير من الرحالة الأوروبيين باعتبارها مصدر إشعاع حضاري بالغ الأثر، فقد بزغت على أرضها وبين شعبها أهم الحضارات القديمة التي أضاءت بنورها باقي الحضارات، والأمصار، فقد شهدت أرض الكنانة على ممر العصور العديد من الحضارات التي ساهمت في صناعة اسم مصر العظيمة بتاريخها وثقافتها العريقة عراقة الحضارة الفرعونية التي ذاع صيتها بين الحضارات، حيث استقطبت مصر على غرار بلدان الشرق العديد من الرحالة والمستشرقين الأوروبيين الذين تنوعت وتعددت اهتماماتهم ولعل أهمها التعرف على مصر، ومحاولة كشف أسرارها. ومن أبرز المستشرقين الذين زاروا مصر نذكر على سبيل المثال لا الحصر: "قسطنطين فرانسوا فولني" (volny) 1787، "كلود إيتان سافاري" (C-É Savary)1785، "جان فرانسوا شامبليون" (J-F Champollion.)، ريتشارد فرونسوا بيرتون "(R .F.Burton)، "إدوارد وليم لاين" (Edward William Lane) وغيرهم من المستشرقين الذين حطوا الرحال بأرض الكنانة. وتأسيسا على ما سبق تسعى هذه المداخلة للبحث عن أسباب توجه المستشرق الإنجليزي "إدوارد وليم لاين" إلى مصر، فضلا عن محاولة رصد صورة الآخر المصري في مؤلفه الموسوم بـ: "عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم" وذلك بعد الإجابة على جملة من الإشكاليات التي تدخل في صميم هذه الدراسة ولعل أهمها ما يلي:

- ما المقصود بالاستشراق؟ وما هي دوافعه؟
- ما موقف المفكرين العرب من الاستشراق؟
- كيف تجلت صورة مصر في كتب المستشرق الإنجليزي "وليم لاين" نموذج الدراسة؟

أولا: مفهوم الاستشراق وأهدافه:

يُعد الاستشراق أحد أهم الظواهر الثقافية والمعرفية التي ترمي إلى اكتشاف الآخر المجهول الذي يتمثل عادة في الشرق الساحر كما تصفه كثير من المؤلفات الغربية، حيث يتفق أغلب الدارسين المهتمين بتفسير ظاهرة الاستشراق على وسمه بـــ: **"علم الشرق".** فقد اهتم المستشرقون منذ آلاف السنين بالعالم الإسلامي، حيث « كانت مدارس الاستشراق تُعنى بـ (الموروث)، على أساس أنه مجموعة من التأليف المتداولة والمعروفة التي تخص الإسلام والعرب.» (جاسم الموسوي، 1993، صفحة 11) إن توجه المستشرقين نحو الشرق وخصوصا الأمصار العربية ينم عن رغبتهم الجامحة في اكتشاف العالم العربي والإسلامي بكل ما يحويه من ثقافات ومعارف، وعادات وتقاليد، وما تعلق به من سمات ثقافية أو حضارية أسست لوجوده في

هذا العالم، فالشرق في عيون الأنا الغربي له دلالاته وإيحاءاته التي تمييزه عن الغرب.

أما عن البدايات الأولى التي يمكن وسمها بالتأسيسية لظهور الاستشراق، فقد كانت «في أعقاب الصدام العنيف بين الحضارتين المختلفتين، الحضارة الإسلامية الشابة المتثوبة والحضارة الغربية المترنحة المتخاذلة واستطاعت الحضارة الإسلامية أن تبسط سلطانها على جزء كبير من وآسيا وإفريقيا وامتدت إلى جنوب أوروبا.» (محمد، 2012، صفحة 08) حيث خلق تفوق الحضارة الإسلامية الفتية على نظيرتها الغربية فضولا كبيرا في صفوف الغرب الذي كان في حاجة ماسة إلى التعرف على أسباب قوة الحضارة الإسلامية التي ذاع صيتها في العالم على الرغم من فتوتها.

غير أن الغرب في تفهمه للإسلام لم يتمكن من الحصول على أية مساعدة من التراث القديم ولا طمأنينة من الحديث، فاعتمد علنا – ولعصر كامل- على الماضي في موارده. وهذه مسألة خطرة... «أما الإسلام فقد قاوم بعناد هذه المعاملة، وكان نجاحه باهرا، وتلت كل فترة انهيار مبدئي فترة نمو مذهل ومهدد. قاوم الإسلام الغزو والتبشير وأبى أن يذبل.» (سذرن، فهمي خشيم، و حسن، 2002، صفحة 18) لقد تسبب الانتشار الكبير للإسلام في العالم في زعزعة استقرار وهيبة الكنيسة وقد انجر عن ذلك مقاومة رهيبة لهذا الدين الذي وصل إلى أوروبا وتمركز في الأندلس التي كانت في قبضة الكنيسة.

إن السبب وراء توجه الغرب نحو الاستشراق جاء كنتيجة لأدراك الأوروبيين «أن الدعاية التي اخترعوها ضد المسلمين لن تنفعهم في التعرف على هذا العدو فبدؤوا ما يسمى الاستشراق بدؤوا في ترجمة القرآن الكريم حتى يعرفوا ماذا يقول هذا الكتاب لهؤلاء المسلمين وبدؤوا في ترجمة أمهات الكتب ونقل العلوم عنهم ونقل فلسفة أرسطو عن طريق ابن رشد مثلا باعتباره الشارح الأعظم لهذه الفلسفة... فكانت بداية لنهضة أوروبا كما بداية لطريق طويل من التدهور والاضمحلال بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية.» (عبده قاسم، 2016) ومن هنا بدأت الرحلات الاستشراقية الهادفة إلى استقراء كل ما يحويه الشرق الغامض المفعم بالحياة والمتنوع المعارف، والثقافات، وكل ما يلهم الأنا الغربي، فالحروب الصليبية أبانت تفوق العالم الإسلامي في كثير من الميادين كالفلسفة والطب والفلك...

كما تجدر الإشارة إلى أن وسم الاستشراق بعلم الشرق أقرب بكثير من جوهر اهتماماته وكذا معانيه، «فالتعريج على الاستشراق يعني، من بين ما يعنيه، تحليل صورة الآخر، الإسلام، العرب، وسائر الشعوب غير الأوروبية في أوروبا أو الغرب.» (يفوت، 1989، صفحة 07) فالاستشراق إذا يهتم برصد صورة الآخر غير الأوروبي، ومحاولة تحليل صورته انطلاقا من أبعاد مختلفة تهدف في مجملها إلى تقصي حقيقة الآخر من خلاله أفكاره ومؤلفاته ثم إعادة تصويرها «ومن هنا فقد درس الاستشراق الإسلام، والحضارات الأخرى باستخدام أفكار أوروبية عن الله، والإنسان والطبيعة، والمجتمع، وعن العلم، والتاريخ، ووجد بصورة متسقة أن الثقافات والحضارات غير الغربية متخلفة، وأدنى من الثقافة، والحضارة الأوروبيتين.» (ساردار و صالح، 2012، صفحة 26) إن ما يعاب على الكثير من المستشرقين هو تبنيهم للمنظور الأوروبي في دراستهم للشرق، فاتسمت كتابتهم بالنظرة الدونية لغير الغربي، وهذا ما يؤكد مخالفة هذه الفئة من المستشرقين للواقع بسبب نظرتهم الذاتية المتعارضة مع مختلف القيم والحقائق المتعارف عليها.

ثانيا: موقف المفكرين العرب من الاستشراق:

إن انزياح الاستشراق عن الموضوعية دفع بالكثير من المفكرين العرب –على غرار **"إدوارد سعيد"** - إلى إبداء تخوفهم منه وذلك تأسيسا على مختلف الأفكار والإيديولوجيات التي

تبناها بعض المستشرقين الذين كتبوا عن الشرق ونظروا إليه بعيون غربية. وهذا ما يثبته **"إدوارد سعيد"** في مقدمة كتابه "الاستشراق" الذي يرى من خلاله أن نظرة الغرب للإسلام إنما كانت تهدف إلى « تحويل تنوعه إلى جوهر وحداني غير قابل للتطور، وقلب أصالته إلى نسخة منحطة من الثقافة المسيحية، ومسخ شعوبه إلى كاريكاتورات مثيرة للرعب.» (سعيد و حديدي، 1996، صفحة 26) إن الهوس الغربي بالفوقية وتبنيه للنظرة الدونية لبقية أقطار العالم وخصوصا العالم الإسلامي جعلت الاستشراق يشوبه الكثير من الغموض والزيف بفعل تبني العديد من المستشرقين لأفكار صليبية ساهمت في تشويه الشرق وإنتاج صورة تبخيسية وتحقيرية عن الإنسان الشرقي.

فقد أصدر الغرب حكم التشدد على الإسلام دون علمه بمبادئه وأحكامه وهذا الحكم لا يصدر إلا عن نظرة تفتقد إلى الحجة والمنطق«فمن خصائص الخطاب أنه استطاع بعد سجل حافل خلق شرق متخيل من جهة، كما لم يتوقف عند هذا الحد، بل راح يحاول مليا تثبيت هذا الشرق في قوالب ثابتة، فالغرب سيبقى غربا متحولا وديناميكيا إذا تأكد أن الشرق سكوني، والغرب يروم دائما أن يبقى الشرق ستاتيكا كي يستطيع التحكم فيه وترويضه وفهمه والهيمنة عليه.» (بن بوعزيز، 2018، صفحة 133)إن هوس الغرب وإغراقه في النرجسية سوغ له تمثيل ووصف الشرق المسلم بعديد الصفات التي تخالف واقع الإسلام والمسلمين الذين صوروا كمتخلفين وجهلة ومتعصبين...

إن تعقيبات **" ادوارد سعيد"** على الاستشراق إنما هي تشكيك في نية المستشرقين الذين كثيرا ما وصفوا بالجواسيس الذين جاؤوا لكتابة تقارير عسكرية وخطابات تقلل من شأن الإسلام والمسلمين، فالخطاب الاستشراقي حسب **" إدوارد سعيد"** «كان يؤدي وظيفة تعبوية وسياسية، وتخييلية خدمت السياسة الاستعمارية وشكلت جزء لا يتجزأ من مناخات صعود الامبريالية.» (سعيد و حديدي، 1996، صفحة 26)يظهر الاستشراق غامضا وأحد أجنحة الاستعمار -حسب الإدواردیين- ويعود ذلك إلى تأثر هذه الفئة من المستشرقين بالسياسة الاستعمارية لبلدانهم. فقد «اهتدى "نابليون" بالأدبيات الاستشراقية، التي احتلت مكانا كبيرا من وعيه بالشرق، فَحَمْلَتُهُ تعبيرٌ عن ولع فرنسي بمصر استمدَّ شرعيته من الشغف الغربي بالشرق، ففي تلك المرحلة المحتدمة بالتطلعات من تكوين الغرب الحديث كانت مصر إلهاما لـ "جلاب الحضارة"، وإحدى "العجائب التي تنتظر المستكشفين"، وسرا يلهب خيال الباحثين. وقد أرجع **"روبير سوليه"** الولع الفرنسي بمصر، عشية الحملة إلى مزيج من الأسباب الثلاثة الآتية: الذكريات التوراتية القديمة حول مصر، وأصداء الحروب الصليبية، ثم الصورة الخلابة لمصر في المخيال الغربي.» (إبراهيم، 2013، صفحة 17) كما أن نظرة هؤلاء إلى الإسلام لا تخلوا من تهميش للآخر المسلم، فالمستشرقون حسب الإدواردیين ساهموا في إرساء مفاهيم المركزية الغربية وكانوا أحد أجنحة الاستعمار.

إلا أننا لا يمكننا أن ننكر فضل المستشرقين المنصفين الذين قاموا بدورهم بكل موضوعية وأمانة بل وكانوا حريصين جدا في أن يكونوا «موضوعيِّين في تفكيرهم وفي أحكامهم؛ فقادهم التفكير المنُصفِ إلى قول الحق، ومنهم: مارتن لينجز (Martin Lings) ، سيغريد هونكه (Sigrid Hunke)، هاينريش بيكر (Heinrich Becker)، توماس كارلايل (Thomas Carlyle) "جوت "(Goethe) .» (محمود زناتي، 2013) إن المتتبع للأعمال الأدبية والإبداعية لهذه الفئة من المستشرقين يلمس التأثير العربي والإسلامي في أعمالهم، فموضوعيتهم تبدو جليةً في تصويرهم للشرق وإعجابهم بسماحة الإسلام وبالرسالة العظيمة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم.

يتضح لنا من خلال ما سبق أن الاستشراق هو المعرفة التي أنتجها الغرب عن الشرق

بمحاسنها ومساوئها في نقل صورة الآخر غير الأوروبي، فالاستشراق « قضية تتناقض حولها الآراء في عالمنا الإسلامي، فهناك من يؤيده ويتحمس له إلى أقصى حد، وهناك من يرفضه جملة وتفصيلا ويلعن كل من يشتغل به بوصف ه عدوا لدود ا للإسلام والمسلمين.» (حمدي زقزوق، صفحة 12) ذلك أن الإيديولوجيات التي يتبناها المستشرق في نظرته إلى العالم العربي الإسلامي تتخذ مسارين متباينين إما نظرة دونية وذاتية مرجعياتها استعمارية تسعى إلى طمس الحقائق وتزييف كل المشاهد مما يجعل الأجيال تتوارث صورة سيئة عن الإنسان العربي المسلم، أو نظرة موضوعية قائمة على الإنصاف والصدق، والأمانة، وهذا حال القلة من المستشرقين الذين ساهموا بقدر كبير في التعريف بالحضارات المنسية وكذا تطوير آدابها وتحقيق مخطوطاتها وكذا تقديس كل خصوصياتها إيمانا منهم بمبدأ التعدد، التنوع والاختلاف وكذا احترام الآخر بكل ما فيه من مزايا وعيوب بعيدا عن لهجة الفوقية أو المركزية الأوروبية الامبريالية.

رابعا: أهمية الرحلة ودوافعها:

ولد "إدوارد وليم لاين" في 17 سبتمبر 1801 بهيرفورد وهو الابن الثالث لــ: "ثيوفوس لاين" الكاهن الفخري لكاتدرائية "هيرفورد" تتلمذ بشكل مستقل على يد والديه خاصة. أمه ابنة أخ الرسام "غايسنبورا" امرأة تتمتع بثقافة عالية ومبادئ رفيعة، وإليها يعود الفضل في توسيع مدارك "لاين" الفكرية والأخلاقية. كان متفوقا بشكل غير عادي في مادتي الرياضيات والأدب. قرر والده إرساله إلى جامعة كامبريدج بهدف الانضمام إلى الكنيسة لاحقا، ولكن "لاين" تخلى عن تلك الفكرة. سمح له التحاقه بأخيه الأكبر الذي يعمل في مجال الطباعة الحجرية والنقش بالنهل من منابع اللغة العربية، وقد سبب له ضغط العمل والدراسة المتواصلين بمرض استدعى تنقله للشرق، حيث تتاح له فرصة الشفاء ومواصلة دراسته خاصة وأنه كان مولعا باللغة العربية.

انتقل "لاين" إلى مصر في نهاية 1825 وهو في سن الرابعة والعشرين من عمره، حيث عقد العزم على دراسة اللغة العربية وطبائع الشعب المصري على حد سواء، وعهد أستاذين مهمة تعليمه اللغة العربية، والدين الإسلامي وأحكام الشريعة. اختلط بالناس وعاش بينهم كأنه واحد منهم، متخذا لنفسه اسما عربيا ومتبعا عاداتهم وتقاليدهم حتى أنه امتنع عن معاقرة الخمر وأكل ما حرمه الإسلام، ارتاد منازل المصريين وأسواقهم ومقدساتهم وصلى معهم حتى اكتسب ثقة العرب كاملة واقترب منهم كثيرا وتغلغل إلى أعماقهم حتى نسي أنه إنجليزي... لقد كانت حياة "لاين توطئة للعمل الكبير الذي وضعه نصب عينيه ألا وهو تعريف العالم بالمصريين كما لم يعهد ذلك من قبل... فجاب مصرا طولا وعرضا لمدة ثلاث سنوات ولما خلص "لاين" 1828 من كتابة كتابه الموسوم بــ: "وصف مصر" والذي كان مرفقا برسوم. لم يفلح في إيجاد الناشر الذي يجازف ويتحمل تكاليف نشره رغم قيمة ما كتبه، وبعد طول انتظار أخذت دار نشر "المعرفة الجديدة" على عاتقها نشر الكتاب. وارتأى "لاين" العودة إلى أرض الكنانة مجددا رغبة في تحسين مؤلفه، فعاد إليها سنة 1833 وبقي فيها سنتين اكتسب خلالها معرفة أكبر ونظرة أعمق وأشمل، فتوجت بكتابه الجديد "عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم" الذي صدر عام 1836 في جزأين عن "مكتبة المعرفة الممتعة" وأرفقه بكليشيهات خشبية رسمها المؤلف بنفسه، وقد حقق المؤلف نجاحا باهرا بفعل دقة ووضوح منجزه.

قام "لاين" بنشر ترجمة لكتاب ألف ليلة وليلة" بعد عامين من نشر كتابه، كما قام ب إصدار كتابه "اصطفاءات من القرآن" (الكريم)، وقد عاد قبل صدور هذا الكتاب استعداد ا لإصدار "المعجم العربي" وقد تكفل "دوك نورثمبر لاند الرابع" بنفقات هذا الكتاب كاملة ولما وافته المنية

أكملت أرملته ذلك في حين واصل "لاين" التدقيق والتمحيص لمعجمه طوال عشرين سنة قبل أن يسمح بنشره في خمسة أجزاء سنة 1863. اعتبره مفكرو أوروبا عملا رفيع المستوى. ولكن الموت أعجله قبل الانتهاء من معجمه، فمات في "ورثنغ" في 10 أوت 1876 عن عمر يناهز خمسة وسبعين عاما. أما الجزء المتبقي من المعجم فتم نشره بإشراف حفيد أخيه الأكبر "س. لاين. بول" الذي عمد إلى تدوين سيرته. ورغم عدم تقدير أي جامعة بريطانية لمنجز " وليم لاين" فقد نال هذا الأخير درجة الدكتوراه في الآداب في الذكرى المئوية لجامعة ليدين كما انتخبه المعهد الفرنسي عضوا مراسلا، ومنحته الحكومة البريطانية في سنواته الأخيرة ملكية وهي مخصصات تمنح عادة للملك وأسرته. (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 07 ، 10)

خامسا: صورة مصر السوسيوثقافية:

يشغل الجانب الاجتماعي والثقافي لمصر حيزا محترما من متون الرحالات الأوروبية، فالأوروبيون (قناصلة، مستشرقون، تجار، جواسيسس، أدباء...) حاولوا التقرب من المصريين والتعرف على خصوصياتهم من أجل تكوين صورة متكاملة عن سكان بلاد الكنانة، وقد لفت انتباه الرحالة والمستشرقين الأوروبيين -المتباينة أهداف رحلاتهم- التنوع الإثني في مصر مما استدعى تدخل أقلامهم من أجل توثيق هذه الحقائق والكشف عن خصوصيات كل عرق من الأعراق التي تعيش في مصر، إذ يشير المستشرق الإنجليزي "وليم لاين" إلى التنوع الإثني للمجتمع المصري وهو يذكر أهم الأعراق التي يتشكل منها المجتمع المصري والتي يجملها في: المسلمين المصريين، المسيحيين المصريين، السوريين، اليونانيين، الأرمن، اليهود، العرب وعرب شمال إفريقيا والنوبيين والعبيد الزنوج والمماليك (العبيد البيض)، والجاريات والفرنجة، فضلا عن عرب الصحاري المجاورة... (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 35) كما يقدم "وليم لاين" وصفا ماديا للإنسان المصري قائلا: «يبلغ طول المصريين عامة حوالي الخمس أقدام وثمانية إنشات أو تسعة إنشات، وأما أطفالهم الذين هم ما دون التاسعة والعاشرة فأوصالهم هزيلة متباعدة وبطونهم منتفخة، لكن شكلهم يأخذ بالتحسن كلما كبروا ونموا ولما يبلغون أشدهم ترتسم معالمهم في تناسق، فترى الرجال أقوياء شديدي البنية ونساءهم حسناوات ممتلئات الأجسام، وكلاهما في اعتدال البدن دون وكس أو شطط. ولم أصادف أبدا أشخاصا سمينين اللهم إلا القليلين... والرجل المصري المسلم بيضاوي الوجه، ذو جبين معتدل نادرا ما يكون مرتفعا مع بروزه عامة، وعينين سوداوين غارقتين يلتمع فيهما بريق ساطع وأنف مستقيم مفلطح وفم مرسوم مع شفتين ممتلئتين تكشفان عن أسنان جميلة ولحية سوداء جعدة خفيفة...» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 41)إن الغاية من الوصف المادي للإنسان المصري تكمن في تمكين القارئ الغربي من التعرف على الصفات الفيزيولوجية للإنسان الشرقي الذي ظل بالنسبة له مجهولا.

1. صورة المصري الفاضل:

يجسد "وليم لاين" الإنسان المصري في صورة الإنسان الوديع قائلا: «يتميز المصريون بدماثتهم ولباقتهم مع بعضهم البعض ويتجلى حسن تصرفهم في طريقة إلقائهم السلام وفي تصرفاتهم العامة المتسمة بسهولة كبيرة في أسلوب حديثهم مع الآخرين وهم لا يتكلفونها بل هي مترسخة في طبيعتهم... فعذوبة المعاشرة ميزة هامة في نفوس المصريين على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 208)إن تصوير "وليم لاين" للإنسان المصري

في هذه الصورة الإيجابية من شأنه نفي صورة الإنسان الشرقي المتوحش التي ظلت تروج لها الكثير من أقلام الرحالة والمستشرقين الحاقدين على الإنسان الشرقي المسلم -على وجه الخصوص- لذلك يمكن وصف هذه الصورة بالوقائعية والموضوعية.

ويورد المستشرق الإنجليزي واحدة من العادات المصرية الهادفة إلى صون أخلاق الشباب المسلمين قائلا: «أن يمتنع الرجل عن الزواج ما إن يبلغ السن المناسبة وفي حال عدم وجود عائق يمنعه عن ذلك عمل خاطئ في نظر المصريين يذهبون إلى حد اعتباره ضارا بسمعته. ولأنني ارتكبت شخصيا هذا الذنب-أي عدم الزواج- فلقد عانيت ما عانيته من عدم الراحة ولإزعاج طوال فترة إقامتي في هذا البلاد وسمعت ما سمعته من عبارات اللوم.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 161) ويؤكد الرحالة أنه اضطر لتغيير مسكنه عدة مرات بسبب معارضة سكان الحي فكرة أن يسكن بجوارهم رجل أعزب لدرجة أنهم عرضوا عليه الزواج من جارية حتى يحصن نفسه ويمنع عنه سوء الظن. وتجدر الإشارة إلى دعوة الإسلام الصريحة الشباب المسلم إلى الزواج من أجل استقراره وإتمام نصف الدين، فالزواج صيانة وعفة، وحفظ للنفس من الوقوع في معصية الزنا...

2. صورة المصري المضياف (الكريم):

يصف "وليم لاين" المصري بالإنسان الكريم، إذ ينقل جانبا من السلوكيات التي تعكس سمو ورفعة أخلاق المصريين ليحدثنا هذه المرة بنوع من الإيجابية عن صفة الكرم والجود التي تميز العربي قائلا: «ولا تنسى حسن الضيافة الذي يتميز به أبناء الشرق عامة ويستحق أبناء مصر الثناء عليه. ويعرفون الضيف أو الزائر الذي يحل في ديارهم "بالمسافر". ولا تظنن أن المصري يجلس لتناول طعامه وغريب في منزله فلا يدعوه إلى مشاركته الطعام.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 297) تجسد هذه الصورة تمثيلا موضوعيا لواقع المصري والصفات الملازمة له وللعربي بصفة عامة، فالمسلم مضياف بطبعه، إذ لا يتوانى أبدا في الترحيب بضيوفه، وإكرامهم حتى تكتمل سمات الشخصية العربية الإسلامية . كما يشيد "الرحالة" ببراعة المرأة المصرية في الطبخ قائلا: «من خلال تجربتي الشخصية-إن معظم الزوجات المصريات طباخات ماهرات فما من طبق أكلته وكانت زوجة مضيفي قد أعدته بنفسها إلا وجدته لذيذ المذاق حلوه.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 189) إن الاعتراف بمهارة المرأة المصرية في طبخ أمر إيجابي يضاف لها.

3. صورة المصري الإنساني:

يجسد "لاين" المصري في صورة إيجابية أخرى تتمثل في معاملته الإنسانية للحيوانات، إذ يعبر الرحالة عن إعجابه بهذا الخلق النبيل قائلا: «سرتني كثيرا في أول احتكاكي بشعب مصر معاملته الإنسانية للأعاجم من الحيوانات. فلا تستغربن رؤية مصري يجمع ثوبه الفضفاض تحاشيا لملامسته الكلب النجس، ومع ذلك لا يضن بقطعة خبز يقتطعها من طعامه ويرميها لهذا الحيوان المسكين.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 293) إن الصورة الإيجابية التي جسد فيها "وليم لاين" المصري إنما هي نابعة من الدين الإسلامي الذي يدعو إلى حسن معاملة مختلف الحيوانات والدواب التي تعيش معه، صحيح أن الكلب حيوان نجس ولا يجوز ملامسته لثياب المسلم المصلي لكن ذلك لا يعني الامتناع عن الاعتناء به أو إطعامه.

4. صورة المرأة المصرية:

حظيت المرأة الشرقية باهتمام الكثير من المستشرقين والرحالة الأوروبيين الذين سافروا إلى الشرق من أجل إشباع فضولهم حول المرأة الشرقية التي ساهمت الكثير من الكتابات في تنميط صورتها « وكان في هذه الروايات الأوروبية التي تصف ذلك (الآخر) مقولتان ملفتتان للنظر: الأولى هي الإلحاح على الادعاء بأن الشرق هو "مكان الفسق والملذات"، والثانية هي أن هذا الشرق هو "عالم العنف المتأصل".» (قباني و قباني، 1993، صفحة 19، 20) فقد عمدت الكثير من الروايات الأوروبية عن الشرق إلى التركيز على السمات التي تجعل من الشرق مختلفا عن الغرب وتنفيه إلى عالم (الآخر) وتخفضه إلى مرتبة (الغير) الذي لا صلاح له، وتجدر الإشارة إلى تأثر الكثير من الرحالة والمستشرقين بقصص "ألف ليلة وليلة" التي جسدت الشرق في صورة عالم سحري وعجائبي، وبالتالي أثارت المرأة الشرقية فضول الرحالة الأوروبيين، حيث سافر الكثير منهم نحو الشرق لاكتشاف المرأة الشرقية وخباياها، ومن ثم جاءت نصوصهم الرحلية مثقلة بكم هائل من الصور التي مثلت المرأة الشرقية بمساوئها ومحاسنها.

أ. صورة المرأة المصرية الفاتنة:

يصور المستشرق الإنجليزي "وليم لاين" المرأة المصريةفي صورة المرأة الفاتنة والجميلة، إذ يعبر عن افتتانه بجمال ها قائلا: «ترتسم الملامح الأنثوية في المرأة المصرية بين التاسعة والعاشرة من عمرها، وهي تكتمل وتبلغ أعلى مرتبات الجمال بين الخامسة عشر والسادسة عشر... وهن كالرجال بيضاويات الوجه عريضاته أحيانا وأما الكريمتان فسوداوان واسعتان لوزيتا الشكل عامة ذات أهداب طويلة وتعابير ساحرة رقيقة، فلا يمكنك تصور لواحظ أجمل في صورتها. ويكاد سحر المآقي يحجب سمات المحيا الأخرى (مهما بلغت هذه السمات من جمال).» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 48) إن الصورة التي جسد فيها "لاين" المرأة المصرية تتفق مع مختلف الصور التي تجلت فيها المرأة الشرقية في الكتابات الغربية المعجبة بالمرأة الشرقية والتي كثيرا ما جسدتها في صورة الأنثى الساحرة والجذابة.

يستمر "لاين" في التعبير عن افتتانه بجمال المرأة المصرية قائلا: «المعروف عن المرأة المصرية أن عيونها أحلى سمات وجهها. فالملامح وإن كانت متناسقة فهي لا تضاهي العيون جمالا وسحرا وكم سحرتني وجوه لرقة تعابيرها وقسماتها وتجسيدها روعة الجمال الأنثوي، فتركت في نفسي بليغ الأثر لا أكاد أخال معه جمالا ولا أظن أنني مخطئا يوازي جمالهن في الأرض قاطبة...» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 50) إن تغزل الرحالة بعيون المرأة المصرية يعبر عن إعجابه وافتتانه الشديد بجفون المرأة المصرية، لذلك يمكن وصف هذه الصورة التي تمثلت فيها المرأة المصرية بالنزيهة والحقيقية عن الشرق. كما يعبر الرحالة عن إعجابه بلباس المرأة الشرقية قائلا: «ولباس المرأة المنتمية إلى الطبقتين المتوسطة والغنية جميل وأنيق.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 53) ولاشك أن لباس المرأة المصرية يُعبّر عن انتمائها الشرقي بكلّ خصوصياته، ذلك أن اللباس جزء لا يتجزأ من الثقافة الشرقية التي لها ما يميزها عن الثقافات الأخرى.

ويشير "وليم لاين" إلى أدوات الزينة التي تستعين بها المرأة المصرية حتى تبدو في أبهى حلة قائلا:« وتعزز جمال العيون عادة تعرفها نساء الطبقتين الغنية والمتوسطة وتألفها نساء الطبقة

الفقيرة وهي تحديد طرف الجفون بمسحوق أسود يعرف بالكحل.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 49) لا يختلف اثنان في أن الاكتحال عادة من العادات العربية ومظهر من مظاهر الجمال، فالكحل صناعة مصرية، فقد كان المصريون يستخدمونه منذ القدم باعتباره أداة زينة وحماية للعين من أشعة الشمس ومختلف الأوبئة التي تصيب العين. فضلا عن ذلك فإن تكحيل العيون وتزيينها عادة انتشرت بين الجنسين في مصر وهي حقيقة مثبتة في كتب التاريخ.

يستمر الرحالة في الحديث عن أدوات الزينة التي تستعين بها المرأة المصرية حتى تبدو في أجمل حلة قائلا: «من عادات نساء الطبقتين الميسورة والمتوسطة وغيرهم من نساء الطبقة الفقيرة وشم أجزاء محددة من أيديهن وأقدامهن بأوراق شجرة الحناء التي تضفي لونا أحمرا ضاربا إلى الصفرة أو لونا برتقاليا داكنا، ويكون الوشم جميلا إلا في حالات نادرة وتكتفي بعضهن بتنحية أظافر أيديهن وأرجلهن، بينما يمدد بعضهن الآخر نقوش الحناء حتى مفصل كل إصبع من أصابع اليد والقدم...» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 50) اهتمت المرأة المصرية كغيرها من النساء الشرقيات بجمالها، لذلك انبهر بها أغلب الرحالة الأوروبيين؛ لأنهم وجدوا فيها صورة المرأة الشرقية الأسطورية المترسخة في ثقافة الأ نا الغربي. فالكحل والوشم والحناء إحدى أدوات الزينة والتجميل التي تستعين بها المرأة الشرقية في تلك الفترة.

ويرى "وليم لاين" أن المرأة المصرية تصل مرحلة البلوغ قبل غيرها من بنات جنسها اللواتي يعشن في المناخ البارد مما يجعل «الكثيرات منهن يتزوجن في الثانية عشرة من عمرهن أو الثالثة عشرة... ونساء مصر ولودات كثرات النسل بعكس نساء البلدان الأخرى اللواتي يعشن في مصر ولا أولاد لهن.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 162)إن ما أورده "لاين" إنها هو صورة وقائعية لحال المرأة الشرقية، وهي تعكس عادات وتقاليد المجتمعات الشرقية في تلك الفترة، فقد كانت الفتيات تنضجن في سن مبكرة مما يسمح لهن بالزواج، أما عن كثرة النسل فيعود إلى الثقافة السائدة في تلك الفترة فكثرة الولد بالنسبة لهم يحفظ النسل، وسند للوالدين، وهي عادات نشأت عليها العرب. حتى الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى بالزواج من المرأة الودود الولود حفاظا على النسل المسلم...

ب. صورة المرأة المصرية المهمشة:

يقدم المستشرق الإنجليزي "وليم لاين" صورة واقعية عن المرأة المصرية المهمشة اجتماعيا من خلال الحياة البسيطة التي تحياها في الريف قائلا: «لا تبقى نساء الطبقات الدنيا ساكنات طوال نهارهن. فهن يكدحن كما أزواجهن وتلقى عليهن أعباء ثقيلة كتحضير طعام الزوج وجلب الماء (إذ يحملن وعاء الماء الكبير على رؤوسهن) وعزل القطن أو الصوف إضافة إلى صنع الجلة من روث الماشية المجبول مع القش المقطع... تعيش نساء الفلاحين عيشة خنوع لأزواجهن أكثر بكثير من نساء الطبقات الأعلى، فلا يسمح لهؤلاء الفقيرات المسكينات دائما بتناول الطعام مع أزواجهن. وإذا خرجت الواحدة منهن من المنزل برفقته، فهي تسير عادة خلفه. وواجب عليها حمل الأغراض أيا كانت.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 195) إن صورة التهميش التي نقلها ا لمستشرق الإنجليزي " وليم لاين" حول يوميات المرأة البدوية القاسية لا تزال قائمة إلى يومنا هذا في المناطق الريفية التي تكون فيها المرأة بمثابة العمود الفقري للبيت مما أسس لمجتمع أميسي في

كثير من البلدان العربية، فهذه الأعمال الشاقة تقوم بها المرأة البدوية دون تذمر وهذا لا ينقص من قيمتها شيء بقدر ما يزيد منها، فالمتأمل في هذه الأعمال الكثيرة التي تتم بطرق بدائية يدرك حتما حجم قوة وصبر النساء الفقيرات على الظروف الصعبة التي تتسم بها حياتهن.

يستمر الرحالة في إيراد مختلف الصور التي توحي بتهميش المرأة الشرقية قائلا: «تختلف زيجة البتول عن زيجة الأرملة أو المطلقة اللتين لا يحتفل بزواجهما احتفالا مبهرجت صاخبا.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 163)إن التمييز بين المرأة المطلقة والبكر يؤكد على نظرة المجتمع الدونية للمرأة المطلقة على وجه الخصوص، فالكثير من المجتمعات الشرقية ترى في الطلاق وصمة عار تلاحق المرأة أينما حلت وارتحلت وهذا ما يمكن اعتباره تخلفا فكريا يؤكد عجز المجتمع على تبديد النظرة الدونية للمرأة الأرملة أوالمطلقة.

يورد "لاين" صورة أخرى عن تهميش الأنثى الشرقية بمناسبة حديثة عن واقع التعليم في مصر قائلا: «لا نعهد أطفال جنس حواء يتعلمن القراءة والكتابة في المجتمع المصري، ولا نصادف الكثيرات منهن حتى اللواتي ينتمين إلى الطبقة الغنية يتعلمن تأدية صلواتهن ويوكل البعض أمر هذه المهمة إلى شيخة تدأب على زيارة الحريم يوميا فتعلم بناته وجارياته تلاوة القرآن والقراءة والكتابة ولكنها إنجازات نادرة في مصر وإن انتمت الفتاة إلى الطبقة الغنية وتنتشر بالمقابل في البلاد المدارس التي تعلم الفتيات أشغال الإبرة والتطريز، وقد تزور المعلمة منازل الأغنياء فتعلم بناتهن هذه الأشغال.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 74)إن هذه الصورة تكشف عن هيمنة الثقافة الذكورية ال متحكمة في سلوكات وممارسات المرأة الشرقية التي ظلت خاضعة لثقافة الذكر التي تمارس الهيمنة والمنع والإقصاء والاختزال، مما كرس فوقية الذكر ودونية المرأة، فالثقافة الذكورية لا تبيح للمرأة ما تبيحه للرجل، وهذا ما نعتبره إساءة للمكانة التي منحها الإسلام للمرأة.

ت. صورة المرأة المصرية المتحررة:

يصور "وليم لاين" المرأة المصرية في صورة المرأة المتحررة، ويؤكد أن الهندسة التي بنيت وفقها منازل المصريين وحجراتهم لا تعني بالضرورة أن المرأة المصرية سجينة ومحرومة من المشاركة في الحياة الاجتماعية خارج بيتها، إذ يقدم الرحالة وصفا لمنازل المصريين قائلا: «تخصص للنساء حجرات مختلفة لا يسمح لأي ذكر بدخولها باستثناء رب العائلة وبعض الأطفال والأقارب (وتعرف هذه الحجرات بالحريم وكذلك نازلاته).» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 140) إن ما أورده "لاين" يمكن اعتباره صورة واقعية لحال المجتمعات الشرقية، وهي نابعة من دين وعادات وتقاليد المنطقة التي تمنع دخول الغرباء على الحريم وهن في حجراتهن غير متحجبات وتهدف هذه الأعراف إلى صون خصوصية الحريم وحرمة البيت.

يستمر "لاين" في سرد المقاطع التي توحي بتحرر المرأة المصرية قائلا: «وليست الزوجات حبيسات بيوتهن رغم تخصيص حجراتهن في المنزل، فلهن مطلق الحرية في الخروج والقيام بالزيارات واستقبال الزائرات كما يحلو لهن... وأهم الدوافع الكامنة وراء تخصيص حجرات منفصلة للزوجات تكمن في حجبهن عن أنظار المتطفلين من الخدم والرجال الآخرين وهن سافرات الوجه طبقا لمبادئ دينهن.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 177) وقد استشهد المستشرق بالآية 31 من سورة النور والتي تدعو نساء المسلمين إلى التعفف وعدم إظهار زينتهن خارج بيوتهن... فضلا عن ذلك فقد قدم الرحالة وصفا مفصلا للملابس التي ترتديها المرأة

المصرية خارج بيتها. هذا اللباس الذي يذكر "لاين" أنه يستر كل مفاتن المرأة.

5. صورة المصري العجائبي:

لا تخلو كتابات المستشرقين والرحالة الأوروبيين من الصور التي تجسد وتؤسس لغرائبية الشرق، إذ يستثمر أصحاب هذه الكتابات في جملة من العادات والتقاليد المنتشرة في الشرق في تنميط صورة الشرق في جملة من الصور الإقصائية والمشوهة والتي تهدف في مجملها إلى الإساءة إلى العقل العربي، حيث يرى "لاين" أن المصريين «هم أكثر الشعوب إيمانا بالخرافات، فهي تشكل جزءا مهما في ديانتهم وقد نزلت في آيات القرآن الكريم، وأهم هذه الخرافات إيمانهم بالجن.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 227) إن انتشار الخرافات في المجتمعات الشرقية أمر لا مفر منه وكم ساهمت مثل هذه الاعتقادات الراسخة في الذهن العربي في الإساءة له؛ لكن من واجبنا التنبيه إلى أمر مهم وهو اعتبار " وليم لاين" أن إيمان المصريين بالجن خرافة من الخرافات التي يروج لها القرآن؛ إنما هو طعن ضمني في مصداقية القرآن الكريم، وليس غريبا أن يصدر مسيحي حكما كهذا. ويتأكد جهل "لاين" بالأمور الغيبية التي تحدث عنها القرآن الكريم في قوله أن «الجن –كما الاعتقاد السائد- نزلاء السجون خلال شهر رمضان. لذا تقوم النساء عشية عيد الفطر الذي يلي شهر الصيام برش الملح على أرض حجرات منازلهن فيمنعن -برأيهن- هذه الكائنات المخيفة من دخول المنازل ويرددن وهن ينثرن الملح البسملة.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 231) تأسيسا على هذا المقطع يمكن القول إن "لاين" يخلط بين الجن والشياطين، فالمعروف أن الشياطين هي التي تصفد في شهر رمضان وليست الجن.

ويرى "لاين" أن المصريين لا يكنون احتراما مهيبا خرافيا للجن، فحسب بل احترامهم « يشمل بعض الأفراد من أبناء جنسهم فيبدون غالبا إجلالا للذين لا يستحقون مطلقا مثل هذا الاحترام. وينظرون إلى المجنون أو المغفل نظرتهم إلى كائن طار عقله إلى السماء بينما القسم الأكبر من جسده يختلط مع البشر، لذا يعتبرونه من المفضلين في السماء» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 232، 233) إن ما أورده الرحالة يؤكد على انتشار الكثير من التخيلات والأوهام الراسخة في معتقدات الشرقيين مما يجعل منه شعبا غير متنور أو متفتح، فنظرتهم إلى المجانين بهذه الطريقة تسيء للثقافة العربية وتساهم في تنميط صورة الشرق.

كما يقدم "لاين" وصفا للدراويش أو الأولياء الذين يحظون بمكانة كبيرة في المجتمع المصري قائلا:«ونلاحظ أن الأولياء ذائعي الصيت في مصر مجانين أو مغفلون أو أفّاكون دجالون. ولا تستغربن قارئي العزيز إن صادفت أحد هؤلاء الأولياء يركض عاريا كما خلقه الله في الشارع العام فلا تنتفض النساء لرؤيته ولا يغضضن الطرف بل يبجلنه... وقد نلتقي وليا آخر مدثرا بعباءة فضفاضة طويلة مخاطة في أسمال ثياب مختلفة الألوان تعرف بالدّلك مزدانة بخيوط خرزية ومعتمرا عمامة بالية وحاملا عصا علقت على رأسها قطع من الثياب الرثة ذات الألوان المتعددة. ويأكل بعض هؤلاء الأولياء القش أو خليطا من القش المقطع المفروم والزجاج المكسور فيلفت إليه الأنظار بأعماله السخيفة التي يرفضها العقل والمنطق.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 233) ويتحدث "وليم لاين" عن بعض الطقوس والاحتفالات التي ما تزال قائمة في الكثير من المجتمعات إلى يومنا هذا قائلا:«يزور المصريون مقامات أوليائهم إما لمجرد الزيارة تكريما وتقديرا لهؤلاء الأولياء المعززين الذين سيحلون عليهم بعضا من بركتهم وإما لطلب أمر خاص كاستعادة الصحة والعافية أو طمعا بذرية صالحة، وهم يؤمنون بأن الأولياء سيستجيبون لصلواتهم التي يرفعونها في مثل هذه الأماكن...» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 242) إن الغوص في

أعماق المجتمعات الشرقية يحيلنا إلى الكثير من المعتقدات السائدة التي تصب في قالب الخرافة والشرك بالله، فالمتمعن في هذه المشاهد التي نقلها المستشرق الإنجليزي يدرك مدى التخلف الفكري وضعف العقيدة الذي ألم بكثير من فئات المجتمع التي لا تزال إلى يومنا هذا تتبرك بقبور الأولياء الصالحين وتقدم لهم القرابين والهدايا، الأمر الذي نراه مدعاة للشرك والفجور إذا ما سلمنا بأن دين هؤلاء هو الإسلام كما أن مثل هذه التصرفات تجعل من الشرق عالما غرائبيا بامتياز.

ويتحدث "لاين"عن استعانة المصري بالطلاسم والأسحار في حياته اليومية قائلا: «يقودني الحديث عن خرافات المصريين المحدثين إلى الحديث عن إيمانهم بالتعاويذ المكتوبة التي تعتبر السمة البارزة في قاموس خرافاتهم. وترتكز معظم تعاويذهم على السحر فيسنفدون في سبيله أقلام معلمي كل قرية في بلادهم. ولا يتعمق صاحب هذه المهمة في دراسة أمور السحر بل يعتمد على حفظ بعض الصيغ المستعملة في كتابة التعاويذ والمستقاة من القرآن الكريم ومن أسماء الله الحسنى وأسماء الملائكة والجن والرسل وأولياء فيضيف إليها بعض الأرقام وبعض الرسومات البيانية ذات التأثير الكبير.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 254) إن لجوء العربي إلى التمائم والتعويذات من أجل حماية نفسه أو ممتلكاته يمكن وسمه بالشرك، فالمتمعن في أحكام الدين الإسلامي يدرك حتما أن مثل هذه الأشياء محرمة، فتحصين النفس لا يتم إلا بالأدعية والأذكار والرقية الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، لذلك فالسعي وراء السحر والتمائم وغيرها من الطقوس يدل على ضعف الإيمان أو قصور في فهم الدين.

ويختم "وليك لاين" حديثه عن الخرافات الشائعة في المجتمع المصري قائلا: «لاشك أن المسلمين المحدثين يتميزون عامة بتقواهم العميقة رغم الخرافات العديدة المتضارضة التي يؤمنون بها، وأظن أن قليلين هم المسلمين غير المؤمنين» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 291) وتجدر الإشارة إلى أن إيمان الإنسان بالخرافات والخوارق ليس حكرا على المجتمعات الشرقية فحسب، وإنما هو صفة تتشاركها كل المجتمع، ومع ذلك فإن الكثير من الكتابات الغربية قد جعلت من هذه الأشياء حكرا على العالم العربي دون سواه ! فقد ساهم «أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عبر رسم صور دنيا لهم، بواسطة مخيلة جائعة إلى السحري والأيروسي والعجائبي، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم،... ركز أساسا، على تتبع ملامح النهضة العلمية والصناعية، وتطور العمران، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق...» (التوزاني، 2017) وهذا ما كرس صفة الغرائبية والاكزوتيكية المفرطة في هذه البقاع من العالم بسبب تركيز الإنسان الغربي على الصورة النمطية المندسة في فكره.

سادسا: صورة مصر الدينية

أولى المستشرقون الأوروبيون عناية بالغة بوصف الحياة الدينية للمصريين، نظرا لأهمية الدين والمعتقد بالنسبة للفرد والمجتمع باعتباره مكونا أساسيا من مكونات الهوية، حيث تمكن البعض من زيارة أماكن العبادة، ووصف مختلف الشعائر، والاحتفالات الدينية التي يقيمها المصري. إذ ينقل المستشرق الإنجليزي "وليم لاين" العديد من الصور والمشاهد التي توحي بتدين المصري وامتثاله لتعاليم الدين الإسلامي.

1. صورة المصري الملتزم دينيا:

يجسد "وليم لاين" الإنسان المصري في صورة الملتزم دينيا، إذ «ينهض المصري في

ساعة مبكرة ويخلد إلى النوم في ساعات المساء الأولى فالواجب يحتم عليه أن يكون جاهزا مرتديا ثيابه قبل انبلاج الصباح مستعدا لأداء صلاة الصبح. وتعد له زوجته أو جاريته فنجان القهوة وتملأ له غليونه بينما يتوضأ ويتلو صلاته، فلما يفرغ من تعبده لرب العالمين يحتسيه على مهل.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 141) إن ما أورده "لاين" يؤكد على مكانة الصلاة في نفس الإنسان المصري، فالصلاة عماد الدين، لذلك فإن المحافظة عليها وخاصة صلاة الصبح يبين مدى التزام المسلم بتطبيق تعاليم دينه الحنيف. ويقدم "لاين" المصري المسلم في صورة إيجابية من خلال وصفه لتصرفاته داخل المسجد قائلا: «يتصرف المسلم المصري بكل ما أوتي من رزانة ولباقة وإجلال. ولا ينم مظهره ومسلكه في الجامع عن عبادة متأججة بل عن تقوى هادئة متواضعة، ولا يزلُّ لسانه فينطق بكلمات في غير موضعها ولا هو يقوم بعمل شائن خلال صلاته، فكأنه يرمي جانبا عندما تطأ قدماه المسجد اعتداده وتعصبه المعروفين عنه في حياته العامة أو في طريقة تعامله مع أناس من دينه أو من دين غيره، فإذا به الخاشع الساجد في تعبده خالقه، متواضع من غير تصلف أو تكلف.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 93، 94) لاشك أن أجواء الخشوع والتواضع لله والسكينة التي تصاحب الصلاة المنقولة عن المجتمع المصري موجودة في كل المجتمعات الإسلامية خاصة وأنها تؤكد على مدى التزام المسلم في تأدية صلاته وتعبر عن مكانتها عنده، فضلا عن ذلك فإن هذه الصورة تظهر مدى قدسية أماكن العبادة لدى المسلمين.

كما يشير الرحالة إلى مكانة الشهر الفضيل في نفوس المصريين الذين يعتبرون حسبه صوم رمضان « من أهم الواجبات الدينية المفروضة عليهم، فالعديد منهم يصومون وهم عن صلاتهم ساهون، وحتى الذين يقطعون صلاتهم يدعون للمحافظة على وتيرة صيامهم. ويفطر العديد من مسلمي الطبقات الغنية بشكل سري خلال شهر رمضان، بيد أن أكثرهم يحافظون على صيامهم متشددين فيه وإن كان مهلكا للعديدين في سقيمي الصحة ومعتليها.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 97) إن ما أورده الرحالة حقيقة تبين مكانة شهر رمضان في نفس المسلم، فهذا المقطع يؤكد على قدسية الشهر الفضيل على الرغم مما يشوبه من تقصير بعض الفئات في أداء الصلاة باعتبارها عماد الدين، أما عن الفئات التي تفطر في شهر رمضان فيمكن وصفها بالشاذ الذي لا يقاس عليه. أما عن وصف "لاين" للصيام بأنه شهر مهلكة للمرضى؛ إنما يؤكد على جهل المستشرق لأحكام الصيام التي تتيح للمريض والمسافر والحامل... الإفطار حفاظا على صحتهم وحياتهم مما يؤكد على أن الإسلام دين يسر وليس دين عسر.

يستمر "وليم لاين" في إيراد مختلف الصور التي توحي بتجذر الإسلام في مصر قائلا: «يسترشد المسلمون في معاملة أولادهم بتعاليم رسولهم (ص) أولا وبتوجيهات معلميهم الدينيين ثانية. وأولى الواجبات الملقاة على عاتق الأهل عند ولادة طفلهم هي تشنيف أذنه اليمنى "بالآذان" وهذه مهمة الرجل، وقد يعمد بعض الأشخاص إلى ذكر "الإقامة" وهي تشبه الآذان في أذنه اليسرى وهدف هذه الأعمال حماية الطفل من تأثير الجن..» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 64) إن ما أورده الرحالة حقيقة وواقع يعكس إتباع الإنسان المصري لسنة النبي صلى الله عليه وسلم والتي تهدف في مجملها إلى تحصين المسلم من الصغر من الفتن والمعاصي. ويرى "لاين" أن سلوكات المسلمين تتسم عادة « بالاحترام الشديد والنظامية الدقيقة في مسلكهم الاجتماعي وعاداتهم رغم تساهلهم إلى أبعد الحدود في تصرفاتهم الشخصية وحريتهم التامة في أحاديثهم وترتكز معظم أعرافهم الشائعة على تعاليم دينهم وهي تميزهم في مجتمعهم عن سائر أفراده الآخرين. ومن بين عاداتهم المعروفة عادة السلام... وسلام المسلم على المسلم واجب.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 201) انطلاقا مما سبق يمكن القول إن احتكاك "لاين" بالمسلمين قد سمح

له بالتعرف على الكثير من الأعمال النابعة من الدين الإسلامي، فالمعروف أن إفشاء السلام يدر على المسلم الكثير من الفضائل والثمرات التي تقوي العلاقة بين المسلمين.

يستمر الرحالة في سرد مختلف الأعمال الحسنة التي يقوم بها المصريون يوميا قائلا: «يولي المسلمون أعمال البر والإحسان والتصدق على الفقراء والمساكين مكانة بارزة وهي فضائل يمليها عليهم دينهم فيرسخها في قلوبهم ويتحمس المسلمون لإعطاء الزكاة للمحتاجين والتخفيف عن إخوانهم من المعوزين فينتظرون مكافأة مقابلها في الجنة أو أنهم يقدمون الزكاة حسنة لوجه الله تعالى ويمكن القول من الهبات والحسنات المقدمة للسكان إن عدد المتسولين كبير في القاهرة. وتقام سبل الماء (مفردها سبيل- وهو عبارة عن نافورة للشرب يروي المارة بمائها عطشهم) فإذا بها كبيرة أنيقة في العاصمة وأكثر تواضعا في بنائها في القرى والحقول.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 292)يبدو أن احتكاك الرحالة المباشر بالمصريين قد كشف له الستار عن الكثير من الأعمال التي فرضها أو سنها الإسلام على المسلمين، فمساعدة الفقراء والمساكين والتضامن معهم إنما هي سمة مشتركة بين كل المسلمين، أما تقديم الزكاة للمحتاجين فإنه يبين مدى التزام المسلم في تطبيق تعاليم الإسلام وتعبر الأفعال سالفة الذكر عن الالتزام الديني للآخر المصري.

ويجسد "لاين" الأطفال والشباب المصريين في صورة إيجابية تؤكد على امتثالهم لتعاليم الإسلام قائلا: «وبقدر ما يغدق الأهل العاطفة والحنان على أولادهم بقدر ما يظهر هؤلاء عميق الامتنان والاحترام تجاه والديهم. يعتبر المسلمون عقوق الوالدين خطيئة الخطايا... ونادرا ما تسمع بعقوق طفل بين المصريين أو العرب عامة... فمن عادات الطبقتين المتوسطة والغنية أن يقبل الولد يد والده صباحا ويقف في حضرته بكل تواضع جاعلا يده اليمنى فوق يده اليسرى بانتظار أوامر الوالد أو حتى يأذن له هذا الأخير بالانصراف. وبعد تقبيل اليد المتسم بالاحترام، يأخذ الوالد ولده في حضنه ويبدي الولد الاحترام نفسه تجاه والدته. والاحترام نفسه واجب على الولد أمام أفراد عائلته الآخرين حسب العمر ومنزلة القربى والمركز.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 67) إن ما جاء به "لاين" يبين مدى نجاح المصري في التنشئة الاجتماعية القائمة على تعاليم الدين الإسلامي الذي يدعو إلى احترام الكبير وتوقير الصغير، فالتربية الحسنة والمعاملة الجيدة التي يعامل بها الأولاد ساهمت بشكل إيجابي في تكوين شاب متزن ومطيع لوالديه يعتبر عقوق والديه خطيئة الخطايا ذلك أن العقوق من الكبائر التي حرمتها النصوص الشرعية.

كما يصور "وليم لاين" المصري المسلم في صورة الإنسان الصبور على مختلف المصائب التي تلم به قائلا: «يظهر المسلمون أناة كبيرة في مصائبهم ونوائبهم إيمانا منهم بالقضاء والقدر، فتراهم ينصاعون بثبات وجلد مميزين يقربان من اللامبالاة ويكتفيان بتنهيدة للتعبير عن عميق حزنهم وبذكر الله: "الله كريم" بينما تنفس المسلمات عن أتراحهن وأحزانهن بالولولة والعويل. وفي الوقت الذي يلوم النصراني نفسه على كل حادث مشؤوم يظن أنه أوقعه على نفسه أو كان بإمكانه تجنه، يحتفظ المسلم برباطة جأشه وصفاء ذهنه أمام قواصم الدهر.» (وليم لاين و دسوم، 1999، صفحة 291، 292) إن ما أورده الرحالة صورة إيجابية تعكس قوة إيمان المصري المسلم، فالصبر والاحتساب عند كل مصيبة يعبر عن اقتناع الإنسان المصري بتعاليم الإسلام والتزامهم بماء جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فشدة إيمان المسلم بربه تظهر عند مصيبته.

الخاتمة:

أخيرا يمكن القول إن الاستشراق مصطلح يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويطلق على كل

من يبحث في أمور الشرقيين وثقافتهم وتاريخهم... وقد تباينت مواقف المفكرين العرب حول ظاهرة الاستشراق، فكل يدلي برأيه في هذه القضية إلا أن هناك رأيين أساسيين أما الرأي الأول يشكك في نوايا المستشرقين ويصفهم بخدام الإمبريالية، ومجسدي الهيمنة الغربية. في حين يرى أصحاب الرأي الثاني أن للمستشرقين فضل كبير في تحقيق الكثير من المخطوطات العربية والتعريف بالعالم العربي والإسلامي ويحرص مفكرو الرأي الثاني على تتبع حسنات المستشرقين لا سيئاتهم وزلاتهم. وتجدر الإشارة إلى دور الاستشراق في تجسيد صورة الشرق وهذا ما يجعل منه وسيطا مهما من وسائط تلقي الصورة الأدبية كما هو الحال بالنسبة للاستغراب الذي يساهم بطريقة أو بأخرى في رسم صورة للغرب في المخيال الشرقي.

تكمن أهمية كتاب "وليم لاين" -نموذج الدراسة- في غزارة وتنوع المعلومات التي ينقلها المستشرق عن المناطق التي زارها بأسلوب فني يركز كثيرا على الوصف الحي لمظاهر الحياة الاجتماعية و الثقافية والدينية للسكان... وتأسيسا على قراءتي للكتاب يمكن وصف " إدوارد وليم لاين" بالمستشرق الموضوعي، وقد جسد المصري في جملة من الصور الإيجابية التي كشفت عن أخلاق المصريين في تلك الفترة كالكرم والجود والإنسانية، والتعايش الديني، في حين تجلت المرأة المصرية في صور متباينة بين مضطهدة ومهمشة اجتماعيا وامرأة فاتنة تبعث على الغواية. كما تمثل الآخر المصري في المؤَلف –نموذج الدراسة- في صورة الملتزم دينيا المحافظ على صلاته والصبور على مشقة الصيام، فضلا عن إشارة الرحالة إلى مختلف العبادات والطاعات التي تؤكد على التزام المصري، في حين جسد "لاين" الإنسان المصري في صورة الإنسان الغرائبي بفعل إيمانه بعدد من الخرافات والعادات المسيئة للعقل البشري، وهي صورة عهدناها في كتابات الرحالة والمستشرقين الأوروبيين.

مراجع البحث:

إدوارد سعيد، و صبحي حديدي. (1996). *تعقيبات على الاستشراق* (المجلد 01). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

إدوارد وليم لاين، و سهير دسوم. (1999). *عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم. تر: ، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2،* (المجلد 02). القاهرة، مصر: مكتبة مدبولي.

أنور محمود زناتي. (96 05، 2013). *مستشرقون منصفونل .. جوته "Goethe"* . تاريخ الاسترداد 08 08، 2022، من موقع الألوكة: http//:www.alukah.net

خالد التوزاني. (2017). *الرحلة وفتنة العجيب... بين الكتابة والتلقي* (المجلد 01). أبوظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع.

ر. و سذرن، علي فهمي خشيم، و صلاح الدين حسن. (2002). *نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى* (المجلد 02). القاهرة: مركز الحضارة العربية.

رنا قباني، و صباح قباني. (1993). *أساطير أوروبا عن الشرق لفق تسد* (المجلد 03). سوريا: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

سالم يفوت. (1989). *حفريات الاستشراق (في نقد العقل الاستشراقي)* (المجلد 01). الرباط: المركز الثقافي العربي.

ضياء الدين ساردار، و فخري صالح. (2012). *الاستشراق : صورة الشرق في الآداب والمعارف الغربية* (المجلد 01). أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة.

عبد الرحمن بدوي. (1980). *الديوان الشرقي للمؤلف الغربي* (المجلد 02). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر،.

عبد الله إبراهيم. (2013). *السرديات العربية الحديثة (1): تفكيك الخطاب الاستعماري و إعادة تفسير النشأة* (المجلد 01). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر..

فاروق النبهان محمد. (2012). *الاستشراق: تعريفه مدارسه وآثاره* (المجلد 01). الرباط: منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافة ايسيسكو.

فيصل حماد. (03 10، 2005). *رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر*. تاريخ الاسترداد 08 08، 2022، من البيان: /http://www.albayan.ae

قاسم عبده قاسم. (05 12، 2016). الحروب الصليبية (التطهير)، الجزء الرابع. (قناة الجزيرة الوثائقية، قطر، المحاور)

ماجدة حمود. (2003). صورة الشرق لدى هرمان هيسه. *مجلة دمشق ، 19* (1+2)، 74.

محسن جاسم الموسوي. (1993). *الاستشراق في الفكر العربي* (المجلد 01). بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

محمود حمدي زقزوق. *الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري* (المجلد 01). القاهرة: دار المعارف.

مي عبد الكريم محمود. (2003). *تائهون في صحراء الإسلام: صورة الصحراء العربية في كتابات الرحالة و المستشرقين الفرنسيين* (المجلد 01). سوريا: الأهالي.

وحيد بن بوعزيز. (2018). *جدل الثقافة مقالات في الآخرية والكولونيالية والديكولونيالية* (المجلد 01). الجزائر: دار ميم للنشر.